تحديد مصطلحي « الجاهلية » و « الأميـة » في التراث العربي والاسلامي

الدكتور عادل جاسم البياتي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تتحـدد قيمة كل مصطلح وفق معطيـات عصره الذي يستخدم فيـه ذلك المصطلح ، فاذا زالت مكوّنات خلقه ومبررات سيرورته ، زال ذلك المصطلح ، أو أخذ يفقد قوته وأبعاده الحقيقية التي كان في الأصل قـد ظهر من أجلهـا في الاستعمال ، وأمسى محض ذكرى باهتة نلمح آثارها في بطون الكتب ومعجمـات اللغويين وأعمال الأدباء والشعراء ورجال الفكر المتقدمين • فاذا شـاء أحـد من الدارسين أن يعالج نصاً أدبياً أو معنىً شعرياً ، صدمه اصطلاح علمي أو استخدام لغوي لحقيقة معينة من الحقائق الذاهبة أو ظاهرة اجتماعية أو كونية من الظواهر الزائلة أو وسيلة مادية من الوسائل البشرية المنقرضة • فان لـم تتوفر في ذهن القارىء أو السامع أو المطلع الأبعاد الأصيلة لذلك الاستخدام الاصطلاحي ، سبح الذهن في أوهام لا تمتّ لذلك الممعنى المقصود بأية صلة ، حتى تغدو الصورة في غير حقيقتها • وعندئذ يصدر الحكم بعيداً عن العلم والواقع والأصل •

ولا تنحصر هذه الصعوبات التي تعترض المصطلحات في حدود الأفراد ، بل انها ظاهرة يمكن جرها على المجتمع وهو يواجه تاريخه وعلومه وتراثه • وما أكثر ما تطالعنا مثل هذه المعانات في كتب الباحثين ، عندما يعترض نص لغوي أو مصطلح علمي باحثاً ما ، فلا يستطيع له فهماً ولا تحديداً ، لأنّ وروده في موضعه وأوانه كان أمراً طبيعياً لاشتهاره ، يوم كان مألوفاً ومستعملاً • أما في عصر الباحث

نفسه ، فقد أمسى طلسماً من طلاسم الكهان أو رقية من رقى السحرة لا يمكن فك غموضه أو استجلاء أسراره • وقد كانت هذه الحالة حافزاً لنهوض ثقافي واسع ، عندما رأى العلماء نكوص الباحثين عن علومهم الأولية ولغتهم الأصيلة ، وشدة اقبالهم على الجديد المستحدث أو المعاصر ، أو ما اصطلحوا على تسميته بـ « المولد » أو « المحدث » ، فشغفوا به شغفاً عظيماً واستساغوه وتداولوه لفهمهم له وسهولة تناوله ، خلافاً لما وجدوه في القديم الذي غمضت معانيه وغربت ألفاظه واستغلقت مصطلحاته ، فنفروا منه وألقوا به وراء ظهورهم ، حتى اننا لنسمع بأكبر شخصية تراثية كأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤) يبدي إعجابه بالحداثة التي شغف بها الناس فيقول : « لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت براويته »[١] • فساء ذلك ، الغيورين من رجال العلم ، المقدّرين لخطورة هذا الانقطاع الثقافي الذي يقود الى انقطاع حضاري ، وضياع لتراث الأمة وماضيها المجيد الذي يجب أن يمتد متجدداً بصيغه وأفكاره لتحتفظ الأمة بشخصيتها فلا تزول ، وبروح روادها وقادتها الأوائل فلا تذوب • لهذا كله وذاك ، جمع حماد الراوية عيون الشعر العربي القديم وقصائده المعروفة بالمعلقات عندما رأى زهد الناس بالتراث[٢] ، وهب العلماء والرواة في القرون الهجرية الاولى ، وبالأخص الثلاثة الاولى ، هبة رجل واحد ، يجمعون ثقافة الأمة العربية من أقاصي البلاد ، يذيعونها بين الناس ، شارحين موضحين بلا كلل أو ملل • فلما أقبل تلامذتهم من الجيل الثاني أكملوا ما كان قد أقبل عليه الأوائل حتى أواخر القرن الهجري الثالث ، فكانت القرون الثلاثة الاولى تمثل العصر البطولي لجمع الثقافات العربية والمأثورات الشعبية المختلفة التي تهددت بالزوال وكادت تنطمس تماماً ، مما أوشك أن تعرّض حضارة العرب الى اضرار لا يُعلم مداها ولا نتائجها • ويكفينا أن نتحسس عمق الخسارة من وقوف الانسان العربي تائهاً أو شبيهاً بالتائه أمام كتابه المقدس ، غريباً لا يفقه معانيه وشرائعه ، وأمام تراثه الشعري والنثري جاهلا لا يعرف مدلولاته ومضامينه ، فلما جرت عملية الجمع والتحقيق العلميتين ، والدراسة

والتحليل الأكاديميتين ، عاد الناس الى وعيهم الأول ، وبدأوا يسيرون على أرضية متينة من الثقافة والمعارف المتصلة ببعضها اتصالا عضوياً وحيوياً خالداً ، فلم تعد الثقافات الوافدة لتحزح العربي من أقدامه وترمي به بعيداً عن تاريخه وثقافته وأرضه ، فيكون هدفاً يرمى وغرضاً يستهدف .

واذا كنا نحس ببعض وضوح الرؤية في فهم تراثنا واستمرار جانب من مصطلحاته ومعطياته ، فمردّه الى اولئك العلماء الشجعان رواد القرون الهجرية الأولى ، قادة العصر البطولي ممن عملوا في حقل المعرفة والجهاد معاً ، فحملوا الراية الى جانب العلم في ساحات الفداء والتحرير ، وبلغوا أقاصي العالم القديم ، ابتداء من اسبانيا والجنوب الفرنسي ومروراً بأعماق أفريقيا وانتهاءاً بالهند والصين وطشقند ، حيث زرعوا الخير والعدل في هذه المواضع مع الحرف العربي المضيء بالعلم والمشعّ بالمعارف الانسانية .

ومع هذا الوضوح في الرؤية والاستمرار في العطاء ، بقيت مصطلحات العصور العربية القديمة ، وبالأخص ما سبق الاسلام منها ، غامضة مجهولة ، يستخدمها الناس استخداماً يشوبه الغلط والخلط . ويمكن الاستشهاد على هذه الظاهرة ببعض الأمثلة في تفسير بعض المفردات والمصطلحات الواردة في القرآن الكريم . وتمثل ظاهرة اختلاف الروايات في الشعر الجاهلي مظهراً من هذه المظاهر المتعددة ، وان كان اختلاف الرواية يعود أحياناً الى أسباب اخرى غير غموض اللفظة أو المصطلح[٣] . وعند الرجوع الى قوله تعالى[٤] : ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانيّ » نرى المفسرين والشارحين قد تعددت أقوالهم في لفظة (أمانيّ) فلم يتحدد لها معنى عندهم ولا استقروا بها على وضع ثابت . وليس مجال هذه الدراسة أن تستقصي القريب المختلف فيه ، بل تكفي الاشارة الى كثرة ما كتب ونشر في غريب القرآن ومجازاته . وأما الشعر الجاهلي ، فما أكثر الأبيات التي غمضت معانيها واستغلقت ألفاظها على الدارسين ، حتى أن قسماً

من العلماء ليفسروا بعضاً منها بما يلائم مزاجهم الأدبي أو يرضي حسهم الديني • ففي قول تأبط شراً[٥] :

يا عيد مالك من شوقٍ وإيراق ومرّ طيفٍ على الأهوالِ طرّاقِ

نرى شراح المفضليات من القدماء مثل ابن الانباري (ت : ٣٠٥ هـ) وأبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨) والمرزوقي (ت : ٤٢١هـ) والتريزي (٤١١-٥٠٢هـ) ومن المحدثين أيضاً أمثال المستشرق توربكه (نشر المفضليات سنة ١٨٨٥م في ليبزك) وأبي بكر بن عمر داغستاني المدني (نشرها سنة ١٣٢٤هـ) والمستشرق السير جيمس شارلس لايل (حقق شرح الانباري وطُبع على مطابع اليسوعيين ببيروت ١٩٢٠) وحسن السندوبي في شرحه الموجز (في سنة ١٣٤٥ هـ بمصر) وأحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون (دار المعارف بمصر) ، لم يخرجوا على كلمة (عيد) أكثر من انها تعني : « ما اعتاد الشاعر من حزن وشوق » وهو تفسير يبدو عليه التمحّل واضحاً ، وجميعهم يتحاشى ذكر المناسبة الدينية الاحتفالية التي عرفها العرب في الاسلام ، ظناً منهم ان الناس كانوا يجهلون مثلها في الجاهلية ، وقد قوّى هذا الظن أن اللفظة لم ترد في القرآن الكريم • وأرى أن قول أبي الطيب المتنبي أقرب الى تفسيره منهم[٦] :

عيد بأية حال عدت يا عيدُ
بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيداً دونها بيدُ

فهو يبدي من الأشواق والأحزان ما أبداه « تأبط شراً » في مطلع قصيدته المذكور قبل قليل •

ولم تقتصر هذه الظاهرة على الشعر ، بل يمكن جمع النماذج المتعددة في النثر أيضاً ، فقد ورد في أمثال العرب الجاهلية قولهم : يعينٍ ما أرينك • فقد

فسره ابو هلال العسكري في (جمهرة الأمثال) والميداني في (مجمع الأمثال) بأن معناه ؛ أسرع[٧] . وهو معنى لا يتبادر الى الذهن من ظاهر اللفظ ، فعلق عليه ابو هلال العسكري بقوله : هو من الكلام الذي قد عرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه »[٨] .

إن هذا الغموض في الالفـــاظ والمصطلحات سبب افتئاتاً كبيراً على الامـــة وحقيقتها التأريخية ، وذلك لأسباب يعود بعضها الى تشاغل الناس بما يخص الدين الجديد ، شاعرين تجـاه العصور الوثنية بشيء من الحراجـة والمسّ بنسكهـــم وتقاهم . فكان أن اتجه العلماء القدماء مدفوعين بنفس شـــعور الرهبة ، وبتأثير الأزمات الزهدية ، نحو دراسة التفسير والحديث والفقه وعلوم الدين الاخرى . فلم يأخذوا من ميراث العصور السابقة للاسلام الا القدر الذي ينهض في خدمـة تلك العلوم الدينية ، مطرحين جانباً ما سوى ذلك من التراث . لذلك مرت طائفة من علماء تلك العصور المتقدمة بأزمة دينية تجاه ما يكتبون ويؤلفـون في التراث الوثني القديم . فقيل عن ابي عمرو بن العلاء أنه عندمـــا تقرأ ـ أي تنسك . أحرق من الكتب ما يملأ سقف بيت[٩] . وان خلف الأحمر تاب فلم يبق فيـه موضع لمعصية ، فخرج على الناس يدلهم على ما أحدثته يده من التخريب في بعض المواضع من تراث العرب[١٠] . وان أبا عمرو الشيباني كان اذا فرغ من ديوان شعر لشاعر او قبيلة من العصـر الجاهلي زكى عمله الوثني هـذا بكتابة مصحف شريف يودعه أحد المساجد كي يمحو عن نفســه اثم المساهمة في إحياء التراث الوثني ونشره ، فبلغ ما خطت يمينه من المصاحف ما يربو على الثمانين[١١] .

ومن المصطلحات ما احتفظت بخصوصيتها ولم تفقد أبعاد شخصيتها اللفظيـة والمعنوية ، مثال ذلك مصطلح « شعر » الذي اطلق على هذه الثروة العظيمة الممتدة عبر الأجيال من آلاف السنين الى اليوم ، ذلك لأن الكلمة لقيت صدى في جميـع الاجيال المتعاقبة ، وظل الموروث المتجدد خالداً مع مضى الأعصر ، فكان لكلمـــة

« شعر »[١٢] أن أخذت استقرارها على قاعدة عريضة من الدلالة الاصطلاحية • لكن كلمة « قريض » و « قصيد » مثلا لم تصادفا القبول أو الشيوع الذي صادفته كلمة « شعر » ، لأن الأخيرة غطت عليهما لما حملته من قيم ودلالات في داخلها ، وملاءمتها الموقف النفسي للجماهير • وقد ظل موضع اللفظة من التراث على وضوحه كما بقيت كلمة (كاتب) و (قارىء) منذ العصور الوسطى الى الآن ، بل ورد فيهما الشعر الجاهلي الصحيح الموثق ، وعرف اصطلاحهما يومئذ كمعرفتنا بهما اليوم • فهل حافظ مصطلح « أمية » ومصطلح « جاهلية » على مدلولهما منذ عرفا في مطلع الاسلام حتى يومنا هذا ؟••

قبل أن اضع هذين المصطلحين في موضعهما الصحيح من التراث ، أود أن أشير الى أمرٍ أساسي يشترك فيه هذان المصطلحان ، وهو أن الصلة المعنوية بين المصطلحين وشيجة • فقد كانت كلمة « جاهلية » تطلق على قوم يحملون نفس خصائص القوم الذين تطلق عليهم كلمة « أمية » ، مما خرج بنا الى نتيجة واحدة ، هي أن الانسان الجاهلي والانسان الأمي وجهان لعملة واحدة ، وان مدلولهما كان ينسحب على الانسان الوثني الذي لا كتاب له ، يرجع اليه في أمور دينه ودنياه • وظهر لنا أيضاً من استقراء النصوص القديمة ، والعودة الى نتائج أبحاث العلماء الأوائل والمتأخرين والمعاصرين أن هذين الاصطلاحين لم يكونا معروفين لدى العرب وفق مدلولهما لدينا الآن • وانما عرفا واشتهرا وانتشرا بين جمهور العلماء والناس في اثناء البعثة النبوية الشريفة وما بعدها ، ثم طرأ عليهما تطوير فصارا الى الصيغة الحالية •

لقد وردت لفظة « جاهلية » كمصدر صناعي[١٣] لأول مرة في القرآن الكريم في سورة ال عمران[١٤] والمائدة[١٥] والأحزاب[١٦] والفتح[١٧] • ويلاحظ أن جميع هذه السور مدنية ، مما يدل على أن المصطلح لم يكن قد راج واشتهر تماماً في أول الاسلام في المرحلة المكية ، وإنه بدأ يفرض نفسه في الاستعمال إبان العهد

المدني . وان المواضع الأربعة المذكورة في القرآن الكريم ، ورد فيها المصطلح يشير بوضوح الى المرحلة السابقة لظهور الرسالة ، وهذه المواضع هي : « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية .. ال عمران »[١٨] « أفحكم الجاهلية يبتغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » المائدة[١٩] « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى .. الأحزاب »[٢٠] « اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية .. الفتح »[٢١] .

وقد روى أبو هلال العسكري خبراً يقول نصه[٢٢] : إن أول ما قيل : الجاهلية أن امرأة جاءت الى رسول الله (ص) فقالت :ـ « يارسول الله إن إبلا لي اصيبت في الجاهلية » . فأنزل الله تعالى : « الجاهلية الأولى » . فان صح ما رواه ابو هلال ، يكون هذا الاصطلاح قد أخذ عمقه ومداه الشعبي أيضا وشاع حتى نزل فيه قرآن . أما المصطلح في صيغته (المصدرية الصناعية) فلم نقف له على استخدام في العصر الجاهلي ، وان كنا قد وجدنا الفعل في صيغه واشتقاقاته الأخرى قد ورد في ذلك العصر . واكثر هذه الاستعمالات وضوحاً هي المتمثلة في قول عمرو ابن كلثوم في معلقته[٢٣] :

الا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فجاء بالفعل واسم الفاعل والمصدر في جملة شعرية واحدة . وفسروا المعنى هنا بالسفه : أي لا يسفهن أحد علينا فنعاقبه بما هو أعظم من سفهه[٢٤] . وقد امتد هذا المعنى حتى الاسلام والى عصر الفرزدق فقال[٢٥] :

احلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جناً اذا ما نجهل

ووردت في الشعر بمعنى الجهل الذي هو ضد العلم او المعرفة بالشيء ، كقول سويد بن أبي كاهل البشكري في صفة صحراء لا يعرف مسالكها وأغلاقها[٢٦] :

فركبناهـــا على مجهولهـا بصلاب الأرض فيهن شـجع

واذا عدنا الى ورود الفعـل واشتقاقاته في القرآن الكريم ، وجدنا كلمـــة « الجاهلين » بصيغة اسم الفاعل وردت في تســـعة مواضـــع : سورة يوسف في موضعين[٢٧] ، والفرقان[٢٨] ، والزمر[٢٩] ، والبقرة[٣٠] ، والانعـــام[٣١] ، والأعراف[٣٢] ، وهود[٣٣] ، والقصص[٣٤] . وأما نصوصها فهي : وقال هـــل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ انتم جاهلون .. يوسف » « والا تصـرف عني كيدهن أصبُ اليهن واكن من الجاهلين .. يوسف » « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .. الفرقان » « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون .. الزمر » « قالوا اتخذتا هزواً ، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين .. البقرة » « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين .. الانعام » « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلـــين .. الأعراف » « إني أعظـــك أن تكون من الجاهلين .. هود » « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين .. القصص » .

واما صيغة الفاعل : الجاهل ، فقد وردت في نص واحد : « يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف .. يوسف[٣٥] » وصيغة اســـم المصدر في نص واحد أيضاً : « وحملها الانســـان انه كـــان ظلوماً جهولا .. الاحزاب[٣٦] » . والمصـدر « جهالة » في اربعة نصوص « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة .. النساء[٣٧] » « أنه من عمل منكـــم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده فأصلح فانـــه غفور رحيم .. الانعام[٣٨] » « ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا ... النحل[٣٩] » « فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين .. الحجرات[٣٦] » وجاء الفعـل (يجهلون) و (تجهلون) في خمسة مواضع : « ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن اكثرهـــم يجهلون .. الانعام[٤١] » « قالوا يا موسى اجعل لنا الهاً كما لهم الهة انكـــم قوم تجهلون ..

الاعراف[٤٢] » « انهم ملاقو ربهم ولكني اراكم قوماً تجهلون .. هود[٤٣] » « ائنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم تجهلون .. هود[٤٤] » « وأبلغكم ما ارسلت به ولكني اراكم قوماً تجهلون .. الأحقاف[٤٥] » .

وقد نظر الى هذه الاستشهادات المتنوعة ، العالم المعروف بالراغب الأصفهاني[٤٦] ، فأجرى لها فرزاً دقيقاً ، فلاحظ ورود اللفظة « الجهل » على ثلاثة أضرب : الأول وهو خلو النفس من العلم ، وهذا هو الاصل ، والثاني اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه ، والثالث فعل الشر بخلاف ما حقه أن يفعل ، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً ، كمن يترك الصلاة متعمداً . وعلى ذلك قوله تعالى : « قالوا اتخذنا هزواً ، قال أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين » فجعل فعل الهزو جهلا . ومثل قوله عزوجل « فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة » والجاهل في المواضع المذكورة كلها يأتي على سبيل الذم الا في قوله تعالى : يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » اي لا يعرف حالهم ، وليس يعني المتخصص بالجهل المذموم[٤٧] ، اذ ليس المقصود في هذا الموضع ، الجاهل الذي هو ضد العاقل ، وانما الجهل الذي هو ضد الخبرة[٤٨] . ومثله الذي استجهلته الحمية ، حمية الجاهلية مثلا ، أي حملته الأنفة والغضب على الجهل[٤٩] ، مع أنه قد لا يكون جاهلا شؤون الكتابة والقراءة كما سنعرف عن اشخاص كثيرين من المكيين كانوا كاتبين وقارئين ولكنهم اكتسبوا صفة الجهل ، فلما أسلموا « أي القوا بوثنيتهم واستسلموا للاسلام » زالت الصفة عنهم ، بينما ظلت الصفة مستمرة بأبي جهل ، واكتسبها لقباً فلحقه ذل الدهر ، مع أنه من قريش التي كانت تعرف يومئذٍ بـ « العالمية » لفضلهم وعلمهم ، فقال شاعرهم[٥٠] .

السنا أهل مكة عالماً وادركنا السلام بها رطابا

والسلام « بكسر السين » : الصخور والحجارة الصلبة ، وكانوا يعتقدون أنه كان الصخر في الزمن الأول رطباً . قال ابن العجّاج :

قد كان ذاكمْ زمنَ القِحَطْلِ والصخر مبتل كطين الوحلِ

ولو كانت قريش كلها تعاني الجهل بامور الكتابة والقراءة ما كان صفوة رجالها كتاباً للوحي المنزل : عمر بن الخطاب (رض) وعلي بن ابي طالب (رض) وعثمان بن عفان (رض) وابو عبيدة الجراح (رض) وطلحة ، ويزيد بن أبي سفيان ، وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو أخو سهيل بن عمرو العامري من قريش ، وابو سلمة بن عبدالأسد المخزومي ، وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وابو سفيان حرب بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وجهيم ابن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، والعلاء الحضرمي وهو من حلفاء قريش[٥١] . ولو كانت قريش جاهلة أمر الكتابة والقراءة لما دُهشَ الانصار عندما رأوا ظاهرة الكتابة والقراءة متفشية في المهاجرين ، فسألوا عن المصدر الذي استقوا منه معارفهم . واستنتج باحث معاصر أن رجال بني أمية هم الذين أدخلوا القلم الى مكة بفضل تعليم بشر بن عبدالملك العبادي لهم[٥٢] . وزاد أهل العلم بان المهاجرين أخبروا الانصار بانهم أخذوا الخط عن اهل الحيرة ، وأخذها هؤلاء عن اهل الأنبار . وزادوا بأن خالد بن الوليد لما نزل الأنبار راهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : « ما أنتم ؟! » . قالوا : قوم من العرب نزلنا الى قوم من العرب قبلنا ، فكانت اوائلهم نزلوها أيام « بختنصر[٥٣] » حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها . فقال خالد : ممن تعلمتم الكتابة ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وانشدوا قول شاعرهم[٥٤] :

قومي إياد لو انهم أمم أو لو أقاموا فتهزل النعمُ

قوم لهم باحة العراق اذا ساروا جميعاً والخط والقلم

واستنتج الباحث المعاصر المذكور سابقاً ، بأن الخبر يفيدنا بأننا ازاء مدارس تعلم العربية في القرى وفي الاماكن التي تكون غالبية سكانها من العرب ، وتعلمهم

أمور دينهم من نظر في الاناجيل وفي الكتب الدينية النصرانية والعلوم اللسانية المعروفة الى غير ذلك من علم ومعرفة وثقافة[٥٥] .

ان هذه الشواهد جعلت مصطلح « الجاهلية » ومعرفة العرب يومئذ للقراءة والكتابة والمعارف الأخرى على مفترق طرق ، كما جعلت مصطلح « الوثنية » ومصطلح « الاسلام » على مفترق طرق أيضاً ، فالتقى مصطلح « جاهلية » بمصطلح « وثنية » في المعنى والدلالة على جهل الناس بعبادة الله الواحد الأحد وعدم اهتدائهم الى شرائعه الجديدة التي جاء بها رسوله . وأما القراءة والكتابة فهي مستمرة من الجاهلية الوثنية ، الا ان الاسلام وهو دين النور والمعرفة ، فقد عمل على افشائها بين الناس ويسّر تعليمها من قبل الجماهير بعد أن كانت متعذرة عليهم لقلة المعلمين وندرة الوسائل وسوء التوعية القومية والعلمية .

ولقد افادت شواهد اخرى كثيرة على نفي صفة « الجاهلية » عن العرب بمعنى الجهل العلمي أو غيره ، بل معناه الجهل التوحيدي الديني ، انّ ما تذكره الموارد العربية الاسلامية عن اشخاص جاهليين كان يقال لهم : الكملة ، مثل الربيع بن زياد العبسي واخوته[٥٦] ، ورافع بن مالك وأسيد ابن حضير الكتائب وعبدالله بن أبيّ ، وسويد بن الصامت ، تؤيد لنا أن بلاد العرب لم تكن وفق المنظور الذي يعكسه اليوم مصطلح : الجاهلية ، لأنه ـ أي مصطلح الجاهلية ـ لم يكن يعني غياب المعارف والعلوم المألوفة يومئذ . وان مصطلح : الكملة ، يفترض في صاحبه أن يحسن الكتابة بالعربية ثم الحساب والشعر والعوم والرمي . وأفادتْ صلات العرب الحضارية مع العالم ، وظاهرة بناء اقدم سد ركامي (سد مأرب) والدخول في صفقات تجارية منتظمة واحلاف وعقود مع العالم الخارجي ، بأن العرب كانوا على معرفة واضحة وعلى بينة من قضايا عصرهم . لذلك صحّ ما ذهب اليه ابن خالويه من أن « الجاهلية » لفظ حدث في الاسلام للزمن الذي قبل البعثه[٥٧] . وذكرت دوائر المعارف والكتب الاخرى

بان اليهودية اطلقت على الاقوام الـذين سـبقوا ظهورها بانهم جاهليون[٥٨] . ثم جاء مثل ذلك للاقوام الذين سبقوا المسيحية[٥٩] . لهذا فُهمت اللفظة لدى الباحثين بانها تعني الجهل بالله ووحدانيته وباتبـاع الوثنية والتعبد لغيره[٦٠] . وليس بشيء ما ذكـره المستشـرق گولدزيهـر Goldtziher من انها تعني الجهل ضد الحلم لا ضد العلم[٦١] ، لأن العربي كان قد تغنى طويلا بهذه الشمائل كالمروءة والحلم والعفو عند المقدرة ، وهي معان دائرة في أشعارهم. فكلامه مؤلف من شقين ، شقة الأول باطـل ، والثاني حق كما تقدم شـرحه وبيـانه .

وأما تحديد فترة الجاهليـة ، فهي في نظر المفسـرين تمتد من الجاهليـة الجهلاء أو الجاهلية الأولى التي ولد فيها ابراهيم الى الجاهلية الثانية التي فيهـا محمد (ص) . واختلفوا كدأبهم في هذا التحديد ، فقال بعضهـم بأنهـا تقع بين عيسى ومحمد (ص) . وقال آخرون انها تنحصر بين نوح وادريس أو بين عيسى وآدم أو بين موسى وعيسى أو بين عيسى ومحمد (ص)[٦٢] . والصحيح ما قدمناه، وهي المراحل التي سبقت الاديان السماوية الثلاثة المعروفة : اليهودية والنصرانية والاسلام . ودلت الاحاديث النبوية الصحيحة على صحة استنتاجنا بأن الجاهلية تعني التشبث برموز الوثنية من وجهة النظر الاسـلامية وذلك في قوله (ص) : أربع في امتي من أمر الجاهليـة لا يتركوهن : الفخر بالأحسـاب والطعن في الانساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة »[٦٣] . والفخر في الاحساب هو تحصين للأصالة على الا يؤدي الى المنافرة والصدام ، والطعن في الانسـاب هو استبعاد للهجنة على الا يؤدي الى الظلم ، والاستسقاء بالنجوم هي محاولة للوصول الى حقيقة العلاقة بين الارض والسماء ، وربط هذا الكون ببعضه على الا تؤدي الى الجمود والالحاد ، والنياحة هي الدعوة الى الثأر على ان يكون ثأراً مقدسـاً في سبيل الحق والوطن . وقد استحسنها الرسول من هذا الوجه وخشي أن تبقى في صورتها الجاهلية ، ومع ذلك فقد اعترف بخلودهـا لكن بشـكلها المتطور ،

وها هي اليوم كما قال رسول الله (ص) ، يعتز العربي بعلمه وأرضه وعرضه ، ويناضل من اجلها طويلا .

واذن فالجاهلية تعني الوثنية ، ولكن هل كل الوثنيين جاهليون ؟ لقد أخرج العلماء من كان منهم قد اعتزل عبادة الأوثان مثل حنظلة بن صفوان نبي اصحاب الرس والأخدود ، وخالد بن سنان العبسي الذي اطفأ نار الوثنية ، ووثاب السني ، وأسعد أبي كرب الحميري ، وقس بن ساعدة الايادي وأمية ابن ابي الصلت الشاعر ، وورقة بن نوفل وغيرهم ، حيث أطلقوا عليهم اسم : أهل الفترة ، وهم يقصدون الفترة التي عاشوا فيها بين ولادة الرسول وبين بعثته[٦٤] .

وكما أنه لم يتحقق على الوجه النقدي والعلمي أن جميع الجاهليين وثنيون ، بل خرج منهم من اعتزل الاصنام فكان ارهاصاً للاسلام ، كذلك لم يتحقق أن جميعهم أميون ، لأن لفظة : الأمية ، كانت ترادف لفظة : الجاهلية ، وكلتاهما لا تعني الجهل بأمور الكتابة والقراءة ، وانما عنت الامية ما عنته الجاهلية، وهي : الوثنية . فالأمية صفة لكل أمة لا تملك كتاباً مقدساً . وقد دلنا الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة الى ذلك في قوله[٦٥] :

لمن الديار عفون بالحبُس آياتها كمهارق الفرس

والمهارق : الكتب الدينية ، ذكرها الاعشى في شعره فقال[٦٦] :

ربي كريم لا يكدّر نعمةً واذا يناشد بالمهارق أنشدا

فالفرس أمة وثنية يومئذ ، اعتمدت كتاباً دينياً لها قد يكون محض وصايا وحكم كالتي أثرت عن الزراد شتية ، لكن لم يؤثر عن وثنيي العرب أنه كان في أيديهم كتاب ديني خاص بهم ، ولو وجد لظهرت له بعض الآثار في الكتابات الجاهلية أو القرآن الكريم أو الأخبار والروايات .

وقد وُجِدَ من العلماء العرب من ذهب الى القول بأن الامية اصطلاح جاهلي ورد في الاسلام وذكره القرآن صفة للشخص الذي لا يقرأ ولا يكتب[٦٧] . وذهب من المستشرقين « فرانتس بول Frantis Buhel » مثل هذا المذهب[٦٨] . أما الشعر الجاهلي فلم ترد فيه اشارة الى هذا الاستخدام الاصطلاحي الذي يظهر فجأة في القرآن الكريم في ستة مواضع ، أربعة منها بلفظ « الأميين » : « ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا أمانيّ ... البقرة[٦٩] » « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم .. آل عمران[٧٠] » « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا من الأميين سبيل .. آل عمران[٧١] » « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم .. الجمعة[٧٢] » . وموضعان بلفظ : الأمي .. الأعراف[٧٣] » « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله ... الأعراف[٧٤] » .

وكما اختلف العلماء في معناها ، اختلفوا أيضاً في مبناها ، وبحثوا في اشتقاقها . فمن قائل انها نسبت الى الأم لأن القراءة والكتابة كانت في الرجال دون النساء ، لأنه ليس من شغلهن أن يكتبن ويقرأن في كتاب ، فيكون الشخص الذي على هذه الحالة كما لو كان على ما ولدته به أمه لم ينتقل منها[٧٥] . وقالوا أيضاً انها منسوبة الى الأمة وهي الخلقة[٧٦] ، أو الأمة اذ هي ساذجه قبل أن تطلع على المعارف[٧٧] . وأخرج المستشرق هورفتس J. Horvitz مقابلاً للكلمة في العبرية هو : أمّوت هاعولام Unnot haOlam ومقابلاً لها في اليونانية أيضاً[٧٨] . وكان اليهود يطلقون على غيرهم من الأمم لفظ (أمّت) . أو « أميم » ، يقصدون بذلك الوثنيين[٧٦] . كما أطلقوا على الغرباء من غير اليهود أيضاً اسم : كوي Goy للواحد وكويم Goyim للجمع ، وكذلك آخريم Nochrim , Ahrim تمييزاً لهم عن العبرانيين ، وهي تقابل لفظة Gentile اليونانية[٨٠] . لذلك ذهب بعض مستشرقي اليهود الى أن اللفظة العربية : الأمية ، معربة عن الأصل العبري (كوي) وكويم ، التي تعود الى (أمت وأميم)[٨١] . ولا يمكن لباحثٍ أن يقر بهذا

التعريب لأن اللغة العربية واللغة العبرية تعودان الى أصل واحد ، فكلتاهما تأخذ من نفس المنبع أو المصدر ، بل ذهب العلماء ، ومنهم تيودور نولدكه[٨٢] ، الى انه كلما قوي التشابه بين لغتين ، كان من الصعب جداً معرفة الكلمات التي أعارتها احدى اللغتين الى الاخرى • وضرب مثلا باللفظ المشترك للأسد في اللغات العربية والآرامية والعبرية ، وهو لفظ « ليث » المشترك ، الذي اختفى وفسح الطريق المتفظ الآخر (الأسد) • ثم تطرق نولدكه الى الآراء السائدة جداً في الشرق قديماً بأن الآرامية أقدم لغات البشر ، فرجّح رأي العلماء الجديد بأن العربية أقرب اللغات جداً الى اللغة السامية الأم[٨٣] • لذلك لا يمكن جعل كلمة (أمت) و (أميم) العبريتين أصلاً لكلمة : الأمية ، لأن كلمة (كوي) و (كويم) في الاستخدام العبري الجديد ضيّع ذلك الأصل وجعله مشتركاً ، كما ضرب نولدكه بمثله عن كلمة (ليث) التي تجددت بكلمة (الأسد) العربية أيضاً • وهكذا يقال في لفظة (الأمة) التي ناقشها المستشرق (ر • پاريه R. Paret في دائرة المعارف الاسلامية ، ورد عليه الشيخ أحمد محمد شاكر في نفس اتجاه (تيودور نولدكه) في اصالة اللفظة العربية ، وكونها سامية لم تعرّب عن الكلمة العبرية « أما » أو الآرامية « أميثا » لأن جميع هذه الكلمات تعود الى أصل واحد[٨٤] • وليس صحيحاً ما ذكر من انها ظهرت لأول مرة وعرفها العرب في عصر القرآن • فلو لم تكن واضحة لما خاطبهم الله تعالى بقوله : « كنتم خير امة أُخرجت للناس •• آل عمران[٨٥] » •

وعند مناقشة آراء المفسرين العرب ، يظهر لنا أن الآيات الأربع التي ذكرت : الأميين ، كما أوردناها قبل سطور ، تتضمن المعنى المقصود بالقوم الذين لا كتاب لهم ، وهم العرب قبل الاسلام • والخلاف جار في الآيتين اللتين وردتا في سورة الأعراف ، وقد ورد وصف النبي فيهما بالأمي • لكن الراغب الأصفهاني[٨٦] حسم هذا الخلاف باهتدائه الى النسبة الى « الأم » ليس الأم

المعروفة كما تقدم وانما الى : أم القرى ، وهي مكة ، بلدة الرسول (ص) • ولم ترد النسبة الى الجزء الثاني من الكلمة ، لأن لو نُسب الى (القرية) أو (القرى) لضاعت النسبة ، فكل قرية ينسب اليها بالقروي ، إن مجيء النسبة الى أم القرى تأكيد لشخصه الكريم بالذات وتثبيت لنبوته ضد مزاعم الخصوم ممن يرون غيره أحق بها ، وهم اليهود ، لأن الآية أشارت صراحة الى النبي الأمي أي من أم القرى (مكة) الذي يجدونه مكتوباً في التوراة والانجيل • حقاً لم يكن الرسول إبان نزول الرسالة اليه كاتباً ولا قارئاً يؤيد ذلك قوله تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون •• العنكبوت[٨٧] » فقد ارتاب خصومه من هذه الناحية ، واتهموه بأنه ينقل من كتب « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا •• الفرقان[٨٨] » • الا أن العلماء لم يترددوا في القول بأن النبي (ص) اذا كان قد بدأ حياته لا يقرأ ولا يكتب ، فانه قد ختمها بتعلم هاتين الوسيلتين ، وان كان اعتماده على وحي الله والهامه ، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه ، واعتماده على ضمان الله منه بقوله « سنقرئك فلا تنسى •• الأعلى[٨٩] » • فذكر العلماء رواية عن أبي شيبة قال : « ما مات رسول الله (ص) حتى كتب وقرأ[٩٠] » • ثم ضربوا مثلا لذلك في صلح الحديبية[٩١] • واذا كان الرسول (ص) فعل ذلك حقاً في أخريات حياته فهو اصرار منه على توجيه أنظار العرب الى فضيلة الكتابة والقراءة بعد أن ظهرت المعجزة في نزول القرآن على من لا يقرأ ولا يكتب ، فالمامه بهما فيما بعد لا يغير من الواقع والحقيقة شيئاً ، بل تأكيد منه على ضرورة التعلم ، ولكي لا تصبح ظاهرة عدم قراءته وكتابته سنّة متبعة وفضيلة يتذرع بها المتقاعسون ، بل تأكيد وعزم منه ، وهو القائد الأول والمعلم الأول للمسلمين الأوائل والاجيال التي تليهم بأن القراءة والكتابة هما أساس الدين الجديد •

واذا كان الطبري قد ذهب الى تفسير (الأميين) بمن لا يقرأون ولا

يكتبون ، كما ذكرنا قبل قليل[٩٢] ، فلا يعد ذلك حجة ، لأنه ذهب أيضاً في تفسيره الى أن الأميين هم الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب[٩٣] • فهو اذن قد أخذ بالقولين • وهو نفسه أيضاً أورد تفسير الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس للآية : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ » بتأويلها على معنى انهم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتاباً أنزله ، وانه سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله • وذهب الفراء الى أن الأميين هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب • لكن عالماً لغوياً آخر ، هو قطرب ، كان أقرب الجميع الى فهم واقع العلاقة بين مصطلحي (الأمية) و (الجاهلية) فقال : الأمية هي الغفلة والجهالة • لكنه لم يسلم من أوهام معاصريه فقال أيضاً : وذلك هو قلة المعرفة[٩٤] • فابتعد عن المدلول الحقيقي • وأما الحديث النبوي الشريف « إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب[٩٥] » فحقيقته ان العلماء اعتادوا أن يوردوه مبتوراً • وتمامه : « إنّا امة امية لا نكتب ولا نحسب • الشهر هكذا هكذا : مرة تسعة وعشرين ومرةً ثلاثين[٩٦] » وهنا اختلف المراد من الكتابة والحساب • فليس في الحديث نفي هذه الصفات عن العرب أو قريش ، وانما أراد أننا لا ندقق في كتابة التواريخ وحساب النجوم عند الصيام ، لذلك لا تستخدم اليوم أجهزة التكنولوجيا الدقيقة في مراقبة الشهر للصيام ، بل جرى التأكيد على الرؤية البصرية • وقد تكون لفظة (امية) اضيفت ، لأن كثيراً من الأحاديث تؤكد على معرفة قريش بالكتابة والحساب مثل قوله : « قريش أهل الله ، وهم الكتبة الحسبة[٩٧] » •

ولقد كانت مقومات الشخصية العربية غير ما هي عليه اليوم ، ولم يكن تعلم الكتابة والقراءة أساساً للتقويم ، بل كانت الحافظة أو الذاكرة البشرية هي أساس الذكاء الانساني ، ثم القيم العربية الأصيلة ومكارم الاخلاق والمروءة والشجاعة والاباء والعمل الدؤوب هي المعايير التي تقوّم الشخصية[٩٨] يومئذ • فلما

تقدم العصر وأصبحت العلوم والآداب والفنون تعتمد التقييد والتسجيل ، أصبح الجهل بأمور الكتابة عيباً • لذلك افتخر العرب بأن خليفتهم هارون الرشيد كان يقرأ ويكتب ويجالس العلماء ، وان شارلمان [كارل العظيم] كان أمياً[٩٩] • وأخذوا يطوّرون أساليب التعليم حتى أصبحت الدولة العباسية في الشرق والدولة الأموية في الغرب مركز اشعاع في العالم كله • ويعيد قطرنا اليوم مجده القديم في جعل التعليم والثقافة في متناول اليد كالماء والهواء والخبز في أهميته وضرورته •

الهـوامش

(١) الشعر والشعراء ٦٣/١ •
(٢) شرح القصائد انتسع المشهورات ٤٨/١ •
(٣) يراجع فصل الرواية والرواة في كتاب تاريخ الأدب في العصر الجاهلي ص ١٤٨ • والهوامش في كتاب مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية •
(٤) البقرة ٧٨/٢ •
(٥) المفضليات ص ٢٧ [القصيدة الاولى] مطلع القصيدة •
(٦) ديوانه ١٣٩/٢ •
(٧) جمهرة الأمثال للعسكري على هامش مجمع الامثال للميداني ١٦٨/١ •
(٨) المصدر السابق •
(٩) البيان والتبيين ٣٢١/١ •
(١٠) طبقات النحويين واللغويين ١٧٩ (وكان حدثت له عبادة في آخر أيامه ، حتى لم تكن له سيئة) •
(١١) الفهرست ١٠١ •
(١٢) كتاب أيام العرب لأبي عبيدة (المقدمة) ص ١١١ •
(١٣) ان صفة النسبة الى اسم الفاعل من جاهل هي (جاهليـة) • وجاهلي منسوب اليها على قاعدة النسب المعروفة بحذف تاء التأنيث والياء المشددة بعد أكثر من حرفين [ينظر همع الهوامع للسيوطي ١٩٢/٢-١٩٤] •
(١٤) ١٥٤/٣ •
(١٥) ٥٠/٥ •
(١٦) ٣٣/٣٣ •
(١٧) ٢٦/٤٨ •
(١٨) ١٥٤/٣ •

(١٩) ٥٠/٥ ٠
(٢٠) ٣٣/٣٣ ٠
(٢١) ٢٦/٤٨ ٠
(٢٢) الأوائل ٥١ ٠

(٢٣) شرح الزوزني ٧٨ وشرح التبريزي ٤٢٨ ٠
(٢٤) المصدر السابق وشرح النحاس ٨٣٤/٢ ٠
(٢٥) شرح ديوانه ص ٧١٧ ت : الصاوي ١٩٣٦م ٠
(٢٦) المفضليات ١٩٣ (ق ٤٠) ٠

(٢٧) ٣٣/١٢ ، ٨٩ ٠
(٢٨) ٦٣/٢٥ ٠
(٢٩) ٦٤/٣٩ ٠
(٣٠) ٦٧/٢ ٠
(٣١) ٢٥/٦ ٠

(٣٢) ١٩٩/٧ ٠
(٣٣) ٤٦/١١ ٠
(٣٤) ٥٥/٢٨ ٠
(٣٥) ٢٧٣/١٢ ٠
(٣٦) ٧٢/٣٣ ٠
(٣٧) ١٧/٤ ٠

(٣٨) ٥٥/٦ ٠
(٣٩) ١١٩/١٦ ٠
(٤٠) ٦/٤٩ ٠
(٤١) ١١١/٦ ٠
(٤٢) ١٣٨/٧ ٠
(٤٣) ٢٩/١١ ٠

(٤٤) ٢٧/٥٥ ٠
(٤٥) ٢٣/٤٦ ٠
(٤٦) المفردات ١٠٢ مادة (جهل) ٠
(٤٧) ن٠م٠
(٤٨) اللسان (جهل) ٠
(٤٩) ن٠م٠

(٥٠) الأوائل ص ٥١ والشعر للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ٠
(٥١) فتوح البلدان ٤٥٧ (أمر الخط) ٠
(٥٢) المزهر ٣٥١/٢ « النوع الثاني والأربعون : معرفة الكتابة » ٠

(٥٣) الطبري ٣/٣٧٥ ٠
(٥٤) ن٠م٠
(٥٥) المفصل ٨/١١٠ ٠

(٥٦) يراجع في حياتهم وسيرتهم مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد ـ العدد ١٤ مقالة بعنوان الربيع بن زياد العبسي ٠

(٥٧) كتاب (ليس) ٠ والمزهر ١٧٦ وبلوغ الأرب ١/١٥
(٥٨) دائرة المعارف الاسلامية ٦/٢٦٤ (الجاهلية) ودائرة معارف البستاني (جاهلية) ٠

(٥٩) ن٠م٠ ويراجع أعمال الرسل ، الاصحاح ١٧ الآية ٣٠ [وقد أغضى الله عن أزمنة هذا الجهـل ، فيبشر الآن جميـع الناس في كل مكان الى أن يتوبوا] ٠

(٦٠) المفصل ١/٣٧ وما بعدها ٠
(٦١) دائرة المعارف (جاهلية) ٠ والمصدر السابق ٠
(٦٢) تعرض كتاب المفصل لهذا الاختلاف بالتفصيل ١/٣٧ـ٤٢ ٠
(٦٣) ن٠م٠
(٦٤) ن٠م٠

(٦٥) المفضليات (ق ٢٥) ٠
(٦٦) تاريخ الادب ـ العصر الجاهلي ص ٣٣٨ ٠
(٦٧) الجاحظ ٠ تفسير ١٥/٢٩٦ [بولاق] ٠
(٦٨) دائرة المعارف الاسلامية ٢/٦٤٣ ٠
(٦٩) ٢/٧٨ ٠
(٧٠) ٣/٢٠ ٠
(٧١) ٣/٧٥ ٠
(٧٢) ٢/٦٢ ٠
(٧٣) ٧/١٥٧ ٠
(٧٤) ٧/١٥٨ ٠

(٧٥) الطبري ـ تفسير ١٥/٢٩٦ وأبو حيان ـ البحر المحيط ١/٢٦٩ ٠
(٧٦) أبو حيان ١/٢٦٩ ٠
(٧٧) المصدر السابق ٠

(٧٨) دائرة المعارف ٢/٦٤٣ ٠
(٧٩) المصدر السابق والمفصل ٨/١٠٥ ٠
(٨٠) المفصل ٨/١٠٨ ٠